الدعاية الإسلامية

للمستشرق الانجليزي توماس أرنولد

ترجمة الأساتذة

عبد الفتاح السرنجاوي ، عمر الدسوقي ، عبد العزيز عبد المجيد

انتشار الإسلام في الأمم المسيحية في غرب آسيا

بعد وفاة محمد (ص) ، وجه أبو بكر الحملة التي قصد الرسول إرسالها قبل وفاته ، إلى بلاد الشام ، بالرغم من الاعتراض الذي أعلنه بعض المسلمين لأن أحوال الجزيرة كانت في اضطراب . ولقد أسكت أبو بكر كل معترض على ذلك بقوله : « لن أبطل أي أمر قرره الرسول . ولو كانت المدينة فريسة للوحوش الضارية فلا بد أن تنفذ الحملة رغبات محمد » . تلك كانت أولى الحملات المتتابعة المجيبة التي اكتسح بها المسلمون الشام ، وفارس ، وشمال أفريقيا ، محطمين أركان دولة الفرس القديمة ، ومكتسبين من امبراطورية الروم بعض أقطارها الخصبة الغنية . وليس الغرض من هذا الكتاب أن نتتبع تاريخ هذه الحملات والوقائع المختلفة ، ولكن لما كانت غايتنا أن نشرح كيف انتشر الإسلام عقب الفتوحات العربية كان من المهم أن نميط اللثام عن الظروف والعوامل التي مكنت الإسلام من الانتشار .

ولقد ضمن أحد ثقات المؤرخين المسألة التي نحن بصددها الآن العبارة الآتية[1] : « أكان ذلك الحماس الديني الحقيق نتيجة لتلك العقيدة القوية الطاهرة المترعرعة في بكورتها ، والتي جعلت جنود العرب ينتصرون في كل موقعة ، ويؤسسون في مدة قصيرة أكبر امبراطورية شهدها العالم ؟ إننا في حاجة إلى برهان لإثبات ذلك : لقد كان قليلاً جداً عدد أولئك الذين اتبعوا الرسول وتعاليمه طواعية ، وبإخلاص من أعماق قلوبهم . أما العدد الأكبر فهم أولئك الذين أدخلوا في صفوف المسلمين كرهاً أو رغبة في متاع الدنيا . وها هو ذا خالد — سيف سيوف الله — أوضح مثال لطريقة القوة الممتزجة بالإقناع التي اتبعت معه ومع كثير من القرشيين لكي يعتنقوا الإسلام . ولقد قال هو نفسه حينئذ : إن الله قد قبض عليهم من أفئدتهم وشعورهم وساقهم لاتباع الرسول . ولقد كان أيضاً لروح الافتخار بالقومية العربية المشتركة أثر قوي تلك الروح التي كانت أقوى عند العرب في ذلك الوقت منها في الغالب عند أية أمة أخرى ؛ وتلك الروح وحدها هي التي حدت بالآلاف منهم أن يؤثروا واحداً من بني جلدتهم ودينه على أي مصلح أجنبي عنهم . وأقوى من هذا وذاك ما رغبهم فيه الرسول (ص) من غنى مؤكد باكتسابهم الغنائم الوافرة في الجهاد للدين الجديد ، ومن استبدال الأقاليم الخصبة المثرية : كفارس والشام ومصر بصحرائهم المجدبة العارية التي تجود عليهم بالكفاف فقط

وفي الحقيقة لم تكن تلك الفتوحات الرائعة التي وضعت حجر الأساس للامبراطورية العربية نتيجة للجهاد والحروب الدينية التي أوقدت نيرانها لنشر الإسلام . ولكن تبع هذه الفتوحات ضعف عظيم في العقيدة الدينية المسيحية ، ذلك الضعف الذي ظن أنه الغاية المقصودة من هذه الفتوح . وهكذا اعتبر المؤرخون المسيحيون السيف الآلة التي اتخذها المسلمون للدعاية لدينهم . وغطى ذلك النجاح المعزو إلى السيف على الأدلة التي تشير إلى نشاط التبشير الإسلامي الصحيح بطريق سلمية . ولم تكن الروح التي خلقت الحماس في الجنود من العرب الذين اكتسحوا أطراف الامبراطورية البيزنطية ، والامبراطورية الإيرانية ، روح تبشير لإدخال الجاحدين في الإسلام . بل الأمر على عكس ذلك ، إذ يظهر أن المصلحة الدينية لم تمثل إلا قليلاً في تفكير القادة للجيوش العربية[1] .

إن انتشار الجنس العربي ليتضح بحق في هجرة تلك القبائل القوية النشطة ، ساقها الجوع والعوز إلى ترك الصحراء النكدة ،

(١) Doellinger's Mohammed's Religion nach ihrer inneren Entwicklung und Einflusse auf das Leben der Voelker (Munich 1838) SS 56.

كتاب الدين المحمدي وفقاً لنموه الداخلي وتأثيره في حياة الشعوب . للأستاذ دولنجر . طبعة ميونخ سنة ١٨٣٨ ، صفحة ٥٦ ، ٥٨ ، ١٢ .

(١) أنظر كتاب دراسات في التاريخ الشرقي لمؤلفه بطلر (طبعة ميلانو سنة ١٩١١) صفحة ٣٦٥ وما بعدها .

والانتشار فى أقاليم أكثر خصوبة . تلك الأقاليم التى يقطنها النصارى[1] .

وبعد ، فلقد كان تأسيس الحكومة الدينية فى المدينة العامل الذى خلق الوحدة فى تلك الحركة : حركة الفتح والتبشير ، وكذلك كان عاملاً على الوحدة نظام الأمة الحديثة الذى بدأه أصحاب الرسول المخلصون ، والحجج الثقات الذين اضطلعوا بتعاليمه أولئك الذين حفظت متانة خلقهم وحماسهم الإسلام حياً ، ودينا رسميا ، وذلك بالرغم من عدم اكتراث أولئك العرب الذين انتسبوا إلى الدين ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم[2]

وإذاً فلا يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التى دعت إلى انتشار الدين الإسلامى بتلك السرعة ، فى حوادث الجنود الفاتحة ، ولكن الأولى أن نبحث عن هذه الأسباب فى الأحوال التى كانت عليها الشعوب المغلوبة

إن ما امتازت به حركة الهجرة من كونها ذات جنسية عربية واحدة قد اجتذب إلى جيوش العرب الغزاة ، ممثلى القبائل العربية ورؤساءها ، تلك القبائل التى كانت تعيش فى أطراف الجزيرة ، والتى تمر بها طرق الجيوش الفاتحة . ولذلك فليس غريباً أن نجد كثيراً من أهل البدو المسيحيين قد اكتسحهم مد تلك الحركة القوية ، ونجد تلك القبائل العربية التى دانت بالمسيحية عدة قرون تهجرها حينذاك وتعتنق الدين الإسلامى . ومن هؤلاء قبيلة الغساسنة الذين كان لهم السلطان فى الصحراء الواقعة شرق فلسطين وجنوبى الشام ، والذين قيل عنهم إنهم « سادة فى الجاهلية ونجوم فى الإسلام[3] » وبعد موقعة القادسية سنة ١٤ هـ التى هزم فيها جيش الفرس بقيادة رستم أشد هزيمة جاء كثير من المسيحيين من قبائل العرب البدوية المقيمة على شاطئ الفرات ، إلى القائد العربي وقالوا له : « لقد كانت القبائل التى اعتنقت الإسلام فى باكورته أعقل منا ، أما الآن وقد قتل رستم فسندخل فى الدين الجديد[4] » .

(١) لقد شرح قيطانى بإيضاح وقت الفتوحات العربية ، وذكر أنها تعتبر تاريخيا آخر الرحلات السامية المتعاقبة . أنظر « تاريخ الحوادث الاسلامية » من صفحة ٨٣١ — ٨٦١ الجزء الثانى .

(٢) أنظر قيطانى الجزء الثانى صفحة ٤٠٥ ، والجزء الخامس صفحة ٥٢١ .

(٣) أنظر للسعودى الجزء الرابع صفحة ٢٣٨ .

(٤) أنظر كتاب الخلافة للسير وليام موير (لندن سنة ١٨٩١) من صفحة ١٢١ إلى صفحة ١٢٢

وشبيه بهذا أيضاً ما حدث بعد فتح شمالى الشام فإن معظم أهل القبائل البدوية انضموا بعد تردد قليل ، إلى أتباع الرسول (ص[1])

إنه لمن الممكن أن نحكم أن القوة لم تكن العامل القاطع فى حوادث اعتناق الإسلام ، من العلاقات الطيبة التى كانت بين المسيحيين والمسلمين العرب . فقد عقد محمد (ص) نفسه تحالفاً مع بعض قبائل مسيحية ، واعداً أن يحميهم ، وكافلاً لهم الحرية الدينية ، ولرجال دينهم أن يتمتعوا بحقوقهم القديمة وسلطانهم من غير أى تدخل[2] . وقد ألفت مثل هذه العلاقات أيضاً بين أتباع الرسول وبين أفراد عشيرتهم من أصحاب الدين القديم (يعنى المسيحية) وقد تقدم كثير منهم طوعاً ليساعد المسلمين فى بعثاتهم الحربية ، مدفوعين بروح الطاعة للحكومة الجديدة . وتلك الروح نفسها قد أبقتهم منعزلين عن حركة الردة العظيمة التى رفع أصحابها راية العصيان فى جميع أنحاء الجزيرة العربية عقب موت الرسول (ص) مباشرة[3] .

ويرى بعض المؤرخين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يحمون حدود الأمبراطورية البيزنطية من ناحية الصحراء قد غامروا بنصيب مع جيش المسلمين الفاتحين حينما رفض هرقل أن يدفع إليهم ما كان يجرى عليهم من العطايا ، مقابل خدماتهم الحربية كحراس لأطراف الامبراطورية[4]

وفى موقعة الجسر سنة ١٣ هـ لما بدت طلائع هزيمة قاضية ، واعتصر العرب — وقلوبهم خاوية — بين الفرات والجيش الفارسى ، تقدم رئيس مسيحى من قبيلة طى (كما تقدم من قبل سيوريوس لأريوس لمساعدة هورشس) إلى صف العرب لمساعدة المثنى قائد جيوش المسلمين ليحمى الجسر الذى كان عبارة عن مجموعة من الزوارق الصغيرة ، وكانت حينئذ الطريق الوحيد للتراجع المنتظم ، ولما أخذ المسلمون فى جمع الجنود ليستردوا مكانتهم ، وليمحوا ما لحقهم من عار كان من بين المدد الحربى الذى انصب عليهم من كل جانب وناحية قبيلة مسيحية تدعى بنى نمير ، وكانت تقطن داخل الحدود البيزنطية . وفى واقعة بويب

(١) انظر كتاب الحوادث الاسلامية لقيطانى الجزء الثالث صفحة ٨١٤

(٢) انظر قيطانى الجزء الثانى صفحات ٢٦٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠١

(٣) قيطانى الجزء الثانى صفحات ٧٩٢ ، ٩٣ ، والجزء الثالث صفحة ٢٥٣

(٤) قيطانى الجزء الثالث صفحات ١١١٢ ، ١١٦٥